International Jordanian Journal Aryam for Humanities and Social Sciences; IJJA
Volume1, Issue1, 2019

The Aesthetics of Desert Heritage Urbanism in the Algerian Novel

Professor Iman Jaridan

Ziane Achour University of Djelfa (Affiliated with Ammar Thlijy University of Laghouat)

Received: 3/1/2019
Revised: 26/2/2019
Accepted: 19/3/2019
Published online: 28/3/2019

* *Corresponding author:*
Email: **imanedjeridane@gmail.com**

***Citation:Jaridan**.I.(2019).**The Aesthetics of Desert Heritage Urbanism in the Algerian Novel**. International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences; IJJA, 1(1).*

https://doi.org/10.65811/112

©2019 TheAuthor(s). This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution 4.0 International (CC BY 4.0) license. *https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/*

International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences: Issn Online **2706-8455**

Abstract: This study seeks to monitor the aesthetics of heritage buildings in Algerian desert cities, such as palaces, vertebrates, and mud houses, as a cultural pattern that reflects a succession of artistic, cultural, social, and religious experiences and values left behind by generations. It also monitors the profound transformations these heritage buildings have undergone, whether neglected, demolished or rebuilt. Taking a number of Algerian novels concerned with the subject of desert space as models, they go beyond being texts for reading and enjoyment to discourses closer to historical and social documents, recording facts and reflecting reality, and carrying a vision and perception.

Keywords: Aesthetics, urban heritage, the desert.

جماليات العمران التراثي الصحراوي في الرواية الجزائرية

البرفسور ايمان جريدان

الملخص: تسعى هذه الدراسة إلى رصد جماليات العمائر التراثية في المدن الجزائرية الصحراوية كالقصور والفقارات والبيوت الطينية، باعتبارها نسقا ثقافيا، يعكس تتابعا لما خلفته الأجيال من تجارب وقيم فنية وحضارية واجتماعية ودينية. كما ترصد التحولات العميقة التي آلت إليها هذه العمائر التراثية من إهمال أو هدم وإعادة بناء. متخذة عددا من الروايات الجزائرية المهتمة بموضوعة الفضاء الصحراوي نماذج، تتجاوز كونها نصوصا للقراءة والمتعة إلى خطابات أقرب إلى الوثائق التاريخية والاجتماعية، تسجل حقائقا وتعكس واقعا، وتحمل رؤية وتصورا.

الكلمات المفتاحية: جماليات، التراث العمراني، الصحراء..

العمارة: الاصطلاح والمفهوم:

من المهم بدءا أن نعرج على لفظة العمارة لغة. ورد في القاموس المحيط:(العمر بالفتح وبالضم وبضمتين الحياة ج: أعمار، وبالضم: المسجد، والبيعة، والكنيسة. وعمر الله منزلك عمارة وأعمره: جعله آهلا. وأعمره المكان واستعمره فيه: جعله يعمره. والمعمر كمسكن، المنزل الكثير الماء والكلأ. والعمارة ما يعمر به المكان. والعمارة الحي العظيم.) (الفيروز، ١٩٨٨).

اصطلاحا: وفق ما جاء في العديد من الدراسات، فالعمارة هي فن تشييد المباني وفق قواعد جمالية وهندسية ورقمية محددة. وهي لاتقف عند حدود الحدث المعماري البارز أو المعلم المميز، بل تتناول الملجأ والمأوى البسيط والأثاث، وكل المقتنيات الضرورية لحياة الإنسان اليومية. وهي نشاط يشمل العديد من كالرياضيات والهندسة والفيزياء، والفنون كالرسم والنحت. كما تشمل التصميم الداخلي الذي يعنى بالأثاث، والتخطيط العمراني الذي يعنى بالمدن والمناطق الحضرية.

وفي النص القرآني وردت العمارة في العديد من الآيات بمختلف نطاقاتها البنائية كالمدن والقرى والبيوت والمساكن والصروح والسدود والأكنان والمساجد والصوامع والمحاريب. كما خلد القرآن الكريم بعض المنشآت المعمارية الموغلة في العراقة كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى وديار صالح.

الجمالية: تفيد بمعناها الواسع محبة الجمال في الفنون، وفي العالم المحيط بنا. والجماليات هي(الدراسة الفلسفية للجمال والفنون. وهي دراسة مسائل مثل: ما الجمال؟ ما علاقة الشكل بالمضمون في الأدب والفن؟ ما الذي تشترك فيه الفنون المختلفة؟) (لؤلؤة، ١٩٨٣، ص٢٧٣).

والجمالية في دراستنا هذه نعني بها الخصائص التي تتميز بها العمائر التراثية في المدن الصحراوية، والتي تجعلها جميلة في نظرنا كاحترام الخصوصية والقيم الاجتماعية، وتوفير الأمان، والانسجام مع الطبيعة والمناخ، وحسن اختيار الأحجام والقياسات والألوان المناسبة. وهي خصائص تختلف قطعا من ثقافة إلى ثقافة، ومن مجتمع إلى مجتمع.

العمارة التراثية: هي ذلك الإبداع الإنساني الذي يؤطر الذاكرة ويعطيها شكلا يحفظ ما اختزنته الأجيال من تطلعات جمالية وروحية، وقدرات مادية وإنجازات تقنية وحضارية، وما أرادت المجتمعات التعبير عنه من مواقف ومشاعر ومعتقدات.

الصحراء في الرواية الجزائرية:

اهتم الكثير من الروائيين الجزائريين بموضوعة الصحراء، ووظفوها في نصوصهم المكتوبة باللغة العربية والفرنسية. بدءا من عتبة العنوان، ومرورا بالشخصيات والأحداث، والتوظيف المشهدي ولغة المكان وتفاصيله وعادات وتقاليد أهل الصحراء، وتاريخهم ولغتهم المحلية. وتعد رواية (مريم بين النخيل) لـ"محمد ولد الشيخ"، التي كتبها في ثلاثينيات القرن الماضي، وبالتحديد عام ١٩٣٧ أول رواية تناولت تيمة الصحراء. ثم تلتها عدة كتابات باللغتين العربية والفرنسية.

من أبرزها (سأهبك غزالة) لمالك حداد و(راهبة في الصحراء) لزايدبوفلجة و(تميمون) لرشيد بوجدرة الصادرة عام ١٩٩٤. ورواية(المقبرة البيضاء) لأحمد محمد زغب الصادرة عام ٢٠٠٥. ورواية (تلك المحبة) للحبيب السايح، والتي اعتبرها النقاد الرواية الأكثر نضجا وتعبيرا عن الفضاء الصحراوي. لتأتي بعدها رواية (اليربوع) لحسين فيلالي الصادرة سنة ٢٠١١ و(نادي الصنوبر) لربيعة جلطي، و(اليهودي الأخير بتمنطيط) لأمين الزاوي الصادرتين عام ٢٠١٢.

وأكثر السنوات إصدارا واحتفاء بموضوعة الصحراء هي سنة ٢٠١٣، حيث صدرت عدة روايات منها رواية (مملكة الزيوان) للصديق حاج أحمد و(تنزروفت) لعبد القادر ضيف الله. و(عرائس الرمل) لمحمد مرين. و(الخابية) لجميلة طلباوي سنة ٢٠١٤. كذلك نعثر على عدد من الروايات الصادرة مؤخرا كرواية (عايشة) لحنكة حواء الصادرة عام ٢٠١٦. ولايزال الروائيون الجزائريون يواصلون اهتمامهم بالفضاء الصحراوي، باعتبار أنه فضاء واسع ومرتع خصب للإبداع والتجديد.

جماليات العمران التراثي الصحراوي:

يشكل العمران التراثي الصحراوي، مصدرا مهما لإلهام الروائيين، الذين وجدوا فيه مراتع خصبة، يعبرون من خلالها عن هوية مدنهم الثقافية، ويستحضرون بها فضاءات جديدة وأزمنة جميلة تلاشت، وأمكنة عريقة تكاد تندثر، في ظل ما تعرفه المدن العربية من تنمية، وثورات تقنية في الاتصال والإعلام.

وبتتبع الرواية الجزائرية، نقف على الكثير من الروائيين الجزائريين الذين حرصوا على تصوير المدن الصحراوية خاصة المدن الموغلة في القدم والعراقة، ذات الطابع العمراني الأصيل كوادي سوفوأدرار وتيميمون وغرداية. فأمعنوا في وصف أحياءها وأزقتها العتيقة، من قصور وساحات وقصبات، ودور وبيوت طينية وجبسيه بديعة.

القصور: من أهم ما يميز العمائر التراثية في المدن الصحراوية الجزائرية القصور. والتي هي ليست قصورا للملوك والأمراء بل للبسطاء من أهل الصحراء. وهي عبارة عن تجمعات سكنية أشبه بالقرى. بناياتها من الطوب. محاطة بسور خارجي فردي أحيانا ومزدوج أحيانا أخرى. وقد صنفت منظمة اليونسكو العديد من هذه القصور كمعالم تراثية عالمية، لما لها من تميز وتفرد في هندستها المعمارية، وعراقة تؤرخ لتعاقب حضارات وأعراق، ومرور قوافل وقبائل متعددة. كقصور وادي ميزاب بمدينة غرداية، والقصر القديم بولاية البيض الذي يعد أكبر قصر في الجزائر، وقصور توات بأدرار، والتي تعود عمارتها إلى ما قبل الإسلام والتي تحدث عنها الرحالة الشهير "ابن بطوطة" والعلامة "ابن خلدون، ويتضمن كل قصر من هذه القصور بيوتا وساحة عامة ومسجدا وزاوية لولي صالح يتبرك به أهالي القصر وكتابا لتحفيظ الصغار القرآن الكريم، ومحلات تجارية. فضلا عن تميز هذه القصور بالخنادق والأبراج المشيدة للحماية.

يصف الروائي "رشيد بوجدرة" في روايته (تيميمون) مدينة تيميمون المتميزة بعمرانها المتفرد الأصيل:

(تيميمون عبارة عن قصر بربري عتيق مبنية أسواره بالصلصال الأحمر والمحبحب، فسميت بالواحة الحمراء. ويتربع هذا القصر على صخرة تشرف من أعلى أمتارها العشرين على الواحة. ويملك القصر مسجدا قديما رائعا ذا صومعة تبان وكأنها حذرة من كثرة الغزوات التي كانت تتسلط على القصر، قديما بالمرصاد لكل طارئ آت من الصحراء التي تحوط بتيميمون) (بوجدرة،٢٠٠٢، ص٦٥).

هذه القصور بنيت على مر الأزمنة من طرف عدة قبائل، استوطنت الصحراء وجعلت منها جنة:

(تلك الصحراء التي تزخر بكثبانها الرملية والزعفرانية اللون والمتحركة بسرعة فائقة رغم أحجامها الكبيرة، وطرق الملح والذهب القديمة، وواحاتها التي شاهدت موجات اللاجئين إليها من بربر وزنوج ويهود ومسلمين، على مر القرون فيأتون إليها ويختفون فيها ثم يستوطنونها فيجعلون منها جنة على الأرض) (بوجدرة، ٢٠٠٢، ص٦٥).

القصور من العمائر التراثية في المدن الصحراوية الجزائرية

ويتعمق الروائي "بوجدرة" أكثر في وصف هذه القصور التي يطلق عليها أيضا اسم القصبات، فيقدم وصفا تفصيليا لها من الداخل:

(وقصبة تيميمون يمكن أن تلخص في متاهات أزقتها وكثرة شبابيكها وأسطحها وقبابها وصومعاتها وأقواسها وأبوابها الخشبية وجنائنها الصغيرة والخصبة، وتأتي كل هذه الأحجام والألوان زاهية، صياحة من تكاثر الضوء المسكوب عليها وهيجان الجو فيها) (بوجدرة، ٢٠٠٢، ص٧٨).

هذه القصور حسب تقديم "بوجدرة" لها، ذات أزقة ضيقة ومتداخلة، تضفي طابعا حميميا على المكان، يعكس علاقات الجوار والمحبة بين أهل القصر، الذين غالبا ما يكونون من قبيلة واحدة، فضلا عن الجانب الجمالي والروحي الذي تبعثه الجنائن الخصبة الملونة والمساجد بصومعاتها العالية المشيدة داخل القصر، إن تباين الألوان وتنوعها ما بين النارية الصارخة والباردة تضفي على قصور تيميمون جمالا وبهاء يشد الناظرين لها من بعيد.

(وتأخذني نفس النشوة عندما أنظر إلى تيميمون كلما أكتشفها من بعيد وأنا أقود حافلتي، وهي عبارة عن تفاصيل متراكمة بوضوح، فيخال للإنسان أنه يتحطم نظرا لتراكم كل هذه الأحجام الصفراء والحمراء والصلصالية والخضراء التي تنحدر من أعلى إلى فوق، والعكس ! فتبرز تدريجيا المدينة الجديدة ثم القصر العتيق ثم الواحة اليانعة الفضية) (بوجدرة، ٢٠٠٢، ص٧٨).

الألوان الصارخة التي يختارها أهل الصحراء لقصورهم كاللونين الأحمر والأخضر تعمل على اهتداء القوافل الضالة، فتلعب بذلك دور المنارة والعلامة في الصحاري. مصداقا لقوله تعالى((ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود)) (فاطر/ الآية ٢٧).

الروائية"مليكه مقدم" في روايتها (الممنوعة) هي الأخرى تشيد بجمالية القصور الصحراوية، المتماشية وطبيعة المكان، مسقوفة الأزقة، مظللة، تفيض بالحميمة والشاعرية، مكثفة الزمن، حيث تحيى وتنمو الأحلام الجميلة وحكمة القدماء:

(اشتاقت عيناي إلى رؤية القصر، إن تعرجات الأزقة الضيقة تمسك الأحلام، تحمي الهاربين والكآبات المبهمة ويشكل تشابك الأضواء وظلال الجسور والسقائف المتداخلة، وكذا مغرة الجدران الترابية، تناسقا منسجما) (مقدم٢٠٠٨، ص٢٣).

هذه القصور يختار لها مشيدوها مواقع مناسبة، تكون قريبة من الواحات. فتزيدها هذه الواحات جمالا، يتخذ منها أهل الصحراء مراتع لزراعتهم وسقي إبلهم وماعزهم، كما يقصدها السياح للسباحة والاستجمام:

(فأغتنم فرصة هذه الراحة النفسية وآخذ بمجموعة السياح إلى ((قلتة)) رائعة الجمال وصافية المياه، فيعومون فيها ساعات طويلة ويمرحون ويعبثون كالأطفال الصغار.) (بوجدرة، ٢٠٠٢، صص٩٧-٩٨).

(بحيرة صغيرة أو قلتة غريبة حيث ينمو شجر التين والكروم والدفلة والنخيل المنتج لأحسن التمور في البلاد.) (بوجدرة، ٢٠٠٢، ص ٩٥-٩٦). وحسن اختيار الموقع من معايير جمالية العمارة كما نعلم جميعا.

البيوت الصحراوية: تتفرد البيوت الصحراوية بطابع عمراني مميز، يتماشى ومناخ الصحراء الجاف والحار، كما تشيد من مواد مأخوذة من الطبيعة الصحراوية ذاتها. على غرار بيوت مدينة وادي سوف، الواقعة في الجنوب الشرقي الجزائري والتي تتميز ببيوتها الجبسية البيضاء ذات الأقواس والأسطح المقببة.

يقول الروائي" أحمد محمد زغب" في روايته (المقبرة البيضاء)الصادرة عام٢٠٠٥ واصفا بنايات مدينة البياضة بوادي سوف:

(بناياتها يغلب عليها الطابع المحلي، منازل تقليدية مبنية بالجبس، على بعضها القباب المستديرة، وتزين الأقواس بعضها الآخر) (زغب، ٢٠٠٥، ص١١).

البيت السوفي مبني من المواد التي أتاحتها البيئة الصحراوية. هذه المواد هي الجبس ووردة الرمال، وهي مواد صديقة للبيئة، تتناسب مع قساوة المناخ المعروف بجفافه وحرارته الشديدة وكثرة زوابعه الرملية، وتسمح للبيوت بالبقاء إلى عقود طويلة. كما أن أسطح هذه المنازل مقببة، وهذه القبب من شأنها أن تحد من تكدس الرمال فوق سطح المنزل. بل وتوفر هذه الأسطح المقببة مكانا لحركة الهواء داخل البيت، وتساعد على توزيع أشعة الشمس مما تجعلها تحقق عامل الإضاءة والتبريد صيفا، والتدفئة شتاء.

تصف الكاتبة" حنكة حواء" في روايتها (عايشة) جمالية سقف أحد بيوت بلدة اعميش التابعة لمدينة وادي سوف قائلة (هكذا بنيت البيوت الجبسية في اعميش على شكل قباب لكسر أشعة الشمس لتكون الغرف باردة) (حنكة، ٢٠١٦، ص٤٢).

وأيضا من جماليات البيت السوفي احتوائه على حوش مفتوح للسماء، يحوي جنينة أو نخلة تزين البيت(كل حوش في اعميش يحوي نخلة، وهم مقتنعون جدا أن البيت الذي يخلو منها أهله جياع) (حنكة، ٢٠١٦، ص٥٦). فالنخلة لا تعمل على إضفاء الجمال في البيت السوفي

فحسب، بل وتحقق رمزا طقوسيا يدل على وجود النعم والخير في البيت في المناطق الحارة والجافة تهبط درجة الحرارة كثيرا بعد الغروب، خاصة في المدن الصحراوية، والناس في مثل هذه المناطق تعودوا على إغلاق مساكنهم من الخارج، وفتحها على أفنية داخلية. يسمى واحدها صحنا أوحوشا، ويكون مكشوفا للسماء. وهذا الصحن يقلل من درجة الحرارة في الليل، كما يحقق إثارة بانفتاحه على السماء المزينة بالنجوم.

يصف الروائي" إسماعيل يبرير" في روايته (المعتوه) جمال البيت الجلفاوي، فيقول بأنه بيت غرفه واسعة أسطحها مسقوفة بالقرميد الأحمر، ذات أبواب حديدية لحماية الغرف من السرقة. ولها حوش مفتوح على السماء، تحوي جنينة داخلية، تغرس فيها غالبا أشجارا كالزيتون والعنب وشجرة مسك الليل والنعناع والبقدونس، هذه النباتات يغار عليها أهل البيت وكأنها نساء، فيفضلون غرسها في حدائق داخلية بدلا من غرسها في حدائق خارجية أمام البيت: (حيث يربي الناس أشجارهم في البيوت خفية كأنها نساء). (يبرير، ٢٠١٣، ص٧٠).

يواصل "رشيد بوجدرة " اهتمامه بوصف جمال البيت التيميموني، الذي يسحر كل زائر إلى تيميمون:

- (ولديار تيميون سمات رائعة الجمال ومحكمة التنسيق المعماري، فتملك كل واحدة منها أسطح جميلة الشكل وأفرانا محفورة في الأرض. وعددها ثلاثة في كل منزل. سألتني صراء: ((لماذا ثلاثة أفران في كل منزل يا ترى؟)) لم أعرف الجواب على سؤالها. فقلت فجأة ((هكذا ! لعله نوع من التطير الطقوسي...)) كما كانت المنازل تحتوي على دورات المياه وهي موضوعة على أعلى السطح وتشعر وأنت تتبول بأنك تحمل على رأسك صفيحة السماء المكتظة بالنجوم، فتحس بنشوة تجتاحك في العمق) (بوجدرة، ٢٠٠٢، صص٧٩-٨٠).

البيت التيميموني كما قدمه "بوجدرة " مصمم بطريقة منسقة، أسطحه جميلة، وله ثلاثة أفران، قد تكون حسب رأينا رمزية للكرم والضيافة، المعروف بها أهل الصحراء، وقد تكون أيضا رمزية للتدين، إذ أن الرقم ثلاثة رقم وتري ومقدس في الإسلام، أيضا من سمات البيت التيميموني تواجد حمامه في أعلى السطح، وقد يكون تشييد الحمام في السطح احتراما للخصوصية، وتحقيقا للستر والحياء. وهي كلها صفات خلقية نبيلة تميز الإنسان الصحراوي.

ويرى "غاستون باشلار" أن البيت (هو واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام الإنسانية) (باشلار، ١٩٨٤، ص٣٨). لذلك حرص الروائي "الصديق حاج أحمد" على استحضار البيت الأدراري التواتي في روايته مملكة الزيوان الصادرة عام، وخصص حوالي صفحتين لوصفه بكل تفاصيله الدقيقة، ليعكس من خلاله الهوية الثقافية للمجتمع التواتي، وليبين نمط حياتهم في السابق. متخذا دور المؤرخ والأنثروبولوجي في توثيق التراث المعماري التقليدي، وحاملا على عاتقه جرد مسميات تفاصيل وأركان البيت الأدراري بلغة أهل توات المحلية القديمة: (هي أول مرة أتعدى فيها عتبة بيتنا، والذي أتصوره من الداخل بيتا سقيفيا، مستطيلا، طينيا، سقفت سقيفاته بخشب جذع النخل بابه خشبي صنع من جذع النخل المملسة بإبراء القادوم، ووضع في أعلاه قفل يسمى أفكر، صنع باقتدار محكم من حرفي ماهر وهو أغلب الظن، على آخر يهودي كان يسطن تمنطيط تقابلك فيه سقيفة الباب، التي تدخلك إلى سقيفة القعود المستطيلة، التي بدورها تسلمك إلى رحبة معراة بينها وبين سقيفة القعود، باب يسمى أمنار. وقد سطح في زاوية من تلك الرحبة المعراة مكان يدعى لمنيصب، كما بني في زاوية منها وكر للحمام.

عندها تنفرج أمامك رحبة للشياه، بينها وبين رحبة الجلوس المعراة باب خشبي هو الآخر، حفر في زاوية منها بئر مغطى، كان الأوائل منهم لا يفتحونه، إلا عند نزول الغزاة عليهم. سقفت من تلك الرحبة الشياهية نهايتها، والتي يصطلح عليها التقمي، حيث كان الدجاج والشياه يحتمون فيه ليلا. وقد انتصب في وسط الرحبة المعراة التي بها لمنصيب، سلم يفضي إلى سطح بني في زاوية منه شيخ الدار (المرحاض) هو تقليدي مربع على أي حال، سقفه كسقف الدار تماما، تركت من سقفه فتحتان، الأولى كبيرة، لتغوط الكبار. أكرمكم الله. والثانية صغيرة للصغار) (حاج أحمد، ٢٠١٣، صص٣٥-٣)

تظهر لنا من خلال هذا المقطع السردي، كل المزايا الجوهرية للبيت التواتي؛ الحماية والأمان اللتان يحققهما الباب الخشبي المحكم بقفل من صنع حرفي ماهر يهودي، والغنائية ونمط الحياة التقليدي حيث يحبذ الأهالي تربية حيواناتهم معهم في البيت، والإكتفاء الذاتي وضمان الحياة من خلال تواجد بئر ماء داخل البيت، وعادة حفر الآبار في أفنية البيوت لاتزال عادة حية وموجودة في الكثير من المناطق الجزائرية كمدن الشرق الجزائري، كذلك نلاحظ عنصر الخصوصية حيث يبنى المرحاض في سطح البيت، بل ويراعى في تشييده حاجة الأطفال والحرص على راحتهم وخدمتهم.

الفقارات: من التراث الحضاري في مدن الصحراء كمدينة تيميمون ومنطقة توات بمدينة أدرار أنظمة السقي التقليدية التي تسمى بالفقاقير أو الفقارات، واحدتها فقارة، وتعني فجارة من فجر الماء. سميت فقارة لأن تصميمها يشبه العمود الفقري للإنسان، وهي عبارة عن آبار متسلسلة ارتوازية الشكل تحفر عموديا للوصول إلى المياه الباطنية ومثل هذه الأنظمة في الري نجد شبيهتها في إيران وأفغانستان واليمن والمدينة المنورة وتونس والمغرب.

ويعود تشييدها في صحراء الجزائر إلى القرن ١٢ ميلادي حسب الباحث "حمادي أحمد الحاج"، للحفاظ على منسوب المياه الجوفية، ولتوزيع المياه بشكل عادل ومدروس على ديار ومزارع الفلاحين "رشيد بوجدرة" عند زيارته لمدينة تيميمون أعجب كثيرا بهذا النظام العجيب في السقي، وأوضح بأنها قنوات شيدها الزنوج منذ قرون جيء بهم من السودان ومن قرن إفريقيا الشرقي:

- (تيميمون حيث القنوات الناقلة للمياه يفوق طولها المئتي كيلو متر. وقد حفر هذه القنوات عبيد سود أتي بهم من السودان منذ قرون عديدة، من خلال طبقات الصلصال والخث المتراكمة الواحدة فوق الأخرى، وجاءت هذه الطبقات منحدرة بطريقة متعاكسة في اتجاه شرق-غرب) (بوجدرة، ٢٠٠٢، ص٦٤).

يصفها بأكثر دقة فيقول بأنها تأخذ(أشكال الأمشاط التي تخيط فضاء الواحات وتوزع المياه في كل بستان من البساتين التي هي صغيرة الحجم في معظمها. ويتم توزيع هذه المياه بطريقة دقيقة رغم صعوبة التقسيم. ذلك أن هذا التوزيع ينظم حسب معطيات لا تحصى ولا تعد، معقدة الأسلوب وصعبة المنال. ومن بينها حجم البستان ونظام الطبقات الاجتماعية والشرائح العرقية وأشجار النسب وغيرها من الأمور. ويشرف على هذا التقسيط أمين الماء وهو رجل عاقل وعلامة كبير ينتخب من طرف السكان المزارعين كل ثلاث سنوات) (بوجدرة، ٢٠٠٢، ص٧٩).

من خلال ما سبق نستنتج جماليات الفقارات الكامنة في العمل على المحافظة على نسبة المياه الجوفية، وتوزيع الماء على الحقول بشكل عادل، حسب حجم كل بستان وطبقة وعرق صاحبه، والنظر إلى العرق والنسب والطبقة الاجتماعية كان معيارا مهما في وقت سابق في النظام الاجتماعي الصحراوي، لكن حاليا تراجع التمييز بين فئات المجتمع الصحراوي حسب العرق والنسب، وأصبح توزيع الماء يتم حسب مساحة الحقل وما يوجد فيه من أشجار وزرع.

المزارعون الصحراويون يحرصون على صيانة وترميم هذه التركة المعمارية المهمة ويقومون بتنظيفها بشكل مستمر.

(تعبق روائح عطرة من خلال بساتين تيميمون الصغيرة وهي عبارة عن خليط من روائح الخشب المحروق والتربة المبلولة والفواكه الطازجة من مشمش وتمر وتين وطماطم مجففة، والمواد التنظيفية من شب وغسول تستعمل لتطهير القنوات. ويقضي أصحاب هذه البساتين الرائعة وقتهم في العمل الدؤوب لا يكلون ولا يتوقفون، فيمنعون هكذا تراكم الرمال داخل القنوات وتكاثر الأوحال والأوساخ فيها) (بوجدرة، ٢٠٠٢، ص٧٩).

تطهير الفقارات غالبا ما يتم بطريقة جماعية على أنغام الطبول بما يسمى(التويزة)، وهي تعكس التماسك الاجتماعي بين أبناء الصحراء.

المعابد:

ولا تخلو صحراء الجزائر من عمائر أثرية غربية جميلة، تعود إلى عهد الاستعمار الفرنسي، كمصلى الأب شارل دي فوكو بمنطقة الهقار وكاتدرائية مدينة المنيعة، هذه العمائر القديمة تضفي جمالا على المناطق الصحراوية، وتشيع بهجة في أوساط السياح والزوار:

(كم من شفق وكم من نسق شاهدت من إحدى نوافذ المصلى الصغير الذي شيده الأب دي فوكولت على قمة الأسيكريم في منطقة الهقار، دون أن أشعر بأي حس ديني، لكنني أشعر فقط بإحساس أستتيكي رائع) (بوجدرة، ٢٠٠٢، ص٩٧).

و"شارل دي فوكو" هو قسيس وراهب كاثوليكي فرنسي، عاش فترة من عمره بين الطوارق في الصحراء الكبرى جنوب الجزائر. وتذكر الكتب التاريخية أن هذا الأب كان يتعبد على قمة أسكرام بالهقار حيث توجد أعلى قمة جبلية في الجزائر، وهو ممر الأسكرام الذي يمكن منه مشاهدة أجمل شروق وغروب للشمس في الجزائر، والمعترف به من منظمة اليونسكو.

كذلك المساجد كانت حاضرة في الرواية الصحراوية الجزائرية، ولو بشكل مقتضب، فقد أشاد "أحمد زغب" بجمالية المسجد في مدينة وادي سوف، حيث تشتهر هذه المدينة بصنع الجبس وبالنقش عليه، لتزيين البيوت والمساجد:

(وشرقي الطريق يرتفع المسجد بصومعته العالية المزخرفة بنقوش فنية جميلة، ويحيط به سور مزدان بأعمدة حديدية خضراء، وفي باحته بضع غرسات من النخيل) (زغب، ٢٠٠٥، ص١٣).

(لاحظ الشاب سعيد أن المسجد مزخرف من الخارج، بصورة لافتة كأنما هذه الزخرفة تشعر الزائر بأنه ليس في مسجد عادي. إنما يكتسي أهمية خاصة) (زغب، ٢٠٠٥، ص١٣.(

ويعد فن النقش من أقدم الفنون الجميلة، بيد أنه تجلى أكثر من خلال الحضارة الإسلامية ، المهتمة بعمارة الأرض، وتقديس بيوت العبادة من خلال الحرص على نقائها وتزيينها، وفن النقش على الجبس من أصعب فنون النقش، حيث يتطلب الدقة والتأمل والإلمام بعلوم الرياضيات والهندسة، كما يعد الفن الأكثر انتشارا وأهمية لارتباطه بفن العمارة.

مما سبق نخلص أن العمائر التراثية هي امتداد لتاريخ الفن والإبداع الإنساني، ومرآة عاكسة لقيمه الأخلاقية والمادية والروحية والجمالية، عبر الزمان والمكان، والتي استطاع أن يحققها من خلال ما توفر لديه من مواد ومصادر طاقوية طبيعية. تحقق الراحة النفسية والخصوصية والأمان له، وللطبيعة من حوله، كاستخدامه لمواد من عمق بيئته الجبس والطوب والطين والحجر، وصنعه للفقاقير والنوافير والقبب والأقواس والأعمدة المزخرفة برموز وألوان وأشكال هندسية، تعكس أفكاره ورؤاه وميولاته في الحياة.

جدلية العمارة الصحراوية بين الماضي والحاضر: عرفت المدن العربية كغيرها من عواصم العالم تحولات عميقة على صعيد كل المستويات الحضارية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ومثلما غابت المدينة المحصنة ذات الأبواب، بدأت تغيب المدينة الحديثة المفتوحة، وبدأت مدينة الاتصالات والثورة التقنية أو بما يسمى المدينة الأمونوبوليتية في الظهور، وهي مدينة ما بعد حداثية، فاقدة لمركزيتها، ومتحررة من أثقالها المادية، وعوائقها المكانية، وبسبب هذه التطورات التكنولوجية، صارت المدينة العربية تعاني من طغيان الطرز والأساليب الحديثة في العمارة أو من (هجمة لموجة ماب عد الحداثة، من سماتها التحرر من الشكل وغياب المرجعيات أو انفجار النماذج وتشظي الأشكال) (حرب، ٢٠٠٥، ص١٤٩).

لم تسلم المدينة الصحراوية هي الأخرى من التغير والتحول الذي طال أنظمتها الاجتماعية، وتصميماتها المعمارية وعمائرها التراثية، فتعرضت نتيجة لهذا التغيير الكثير من العمائر التراثية للإهمال والهجر، على غرار ما حدث للكثير من الفقارات والقصور والمعابد، يلتفت الروائي" رشيد بوجدرة" إلى الإهمال الذي طال كاتدرالية مدينة المنيعة، فيقول:

(ليلة البارحة حدثت صراء عن كاتدرالية المنيعة وقد شيدها منذ قرن ونصف القسيس دي فوكولد في وسط صحراء الجزائر، فتظهر من بعيد وكأنها شبح ضخم وقد تخربت وأكل الدهر عليها وشرب) (بوجدرة، ٢٠٠٢، ص١٠٤).

وكان الأولى أن تهتم السلطات المحلية بترميم هذا المعبد، وتجعله قبلة للسياح ومعلما أثريا شاهدا على حملات التنصير بالجزائر إبان الاستعمار، وعمارة عريقة تشهد على حقبة تاريخية مهمة من تاريخ الجزائر.

ويرصد" أحمد زغب" التحولات التي طالت عمران مدينة الوادي، ويرجع هذه التحولات إلى رغبة الإنسان في البقاء والخلود من خلال ما يشيده من عمائر حديثة رأسية، مصممة بإحكام، وبمواد تبدو له أكثر صمودا لعوائد الزمن كالإسمنت والحديد:

(يجد الزائر بعض المفارقات بين هذه البنايات التقليدية المتزاحمة، وبين بعض العمارات العالية القليلة ذات الشرفات الأنيقة، التي تزين جنبات الطريق في بعض أنحائه، والتي تشمخ متحدية، وكأنها تقول في عناد وكبرياء... علام يدل وجودي في هذه المدينة المغمورة في الكثبان والصحاري؟ ألا يدل على أن الإنسان تحدوه رغبة ملحة في البقاء والخلود؟ إنها عمارات مصممة بعناية تصرخ بأن الإنسان متشبث بالحياة إلى أقصى حد فهي ملك لأشخاص أفنوا أعمارهم في الكسب والاكتساب والتعمير) (زغب، صص١١-١٢).

بل ويتجاوز الكاتب "أحمد زغب" أسباب التحول في العمارة إلى ضرورة التطور ومواكبة التكنولوجيا، إلى رغبة الإنسان في التفاخر والتباهي على أصحاب العمائر التراثية التقليدية:

- (يتباهى أهل البنايات الشامخة على أصحاب البنايات الجبسية المتواضعة وفي المباهاة والمفاخرة لذة ما بعدها لذة) (زغب، ص١٦).

الروائي الأدراري "الصديق حاج أحمد" حرصا منه على التوثيق، حمل على عاتقه جرد القصور الصحراوية التي هجرت أو الآيلة للتغير أو الهجر، وأردافها بتهميش مفصل أسفل الصفحة، تتضمن موقع كل قصر وتاريخ تأسيسه، وبعضا من علمائه المشاهير كقصر تمنطيط الذي

هجر، والذي كانت تسكنه الجالية اليهودية، وقصر تليلان وملوكة وأنزجمير، وقصور أقبلي وقصر أولاد سعيد والمطارفة، بيد أن" الصديق الحاج أحمد" لم يهتم بالتحول الذي طرأ على عمران هذه القصور، بل اكتفى بإحصائها ورصد تغيراتها الاجتماعية.

(يكون القصر عندها، قد لبس ما أراد الله له أن يلبس من فنون الحضارة، وأذاب معظم طينه، وانطمست أغلب عاداته وأعرافه، وغارت عين فقارته، وبدأ نجم نخيل سباخه في الأفول) (حاج أحمد، صص١١-١٢)

في هذا المقطع أشار الكاتب بشكل خاطف إلى تغير عمران القصور، من حيث تغيير مادة البناء، كما أشار إلى التغير الذي حدث للفقارات، التي آل بعضها إلى الغور، بسبب الإهمال، وعزوف الشباب على صيانتها وترميمها ويقول موضحا ما طال الفقارات من تحول:

(كانت فقاقير القصر قد بدأت عيونها المائية في الغور، مما جعل منسوب الماء فيها يتناقص بشكل لافت فأعيان الملاكين الإقطاعيين، قد خرجوا حينها من الكهولة ودخلوا في الشيخوخة، ولم يعد بوسعهم مقاومة أشغال الصيانة التي تطلبها الفقاقير كل سنة، للحفاظ على منسوبها المائي، كما أن أبناءهم لم يتربوا على تلك الأعمال الشاقة سواء في خدمة الفقاقير أو خدمة السباخ والبساتين) (حاج أحمد، ص١٣١.(

من جهتها تنتقد "مليكة مقدم" البنايات الحديثة التي لا تنسجم مع مناخ الصحراء الحار، فشبهتها بالورم الخبيث الذي أحاط بالقصر التراثي الجميل، فشوهت بذلك صورة المدينة:

(اكتشفت بلدة ضخمة وأنا مدفوعة بتدفق الصلوات، نبتت مثل ورم على جوانب القصر، لا أعرف هذه الأزقة التي تعرض نفسها عارية لسادية الشمس الآن، تعرض هذه البنايات، المخربة قبل اكتمالها، شقوقها، نفاياتها خواءها، وتحولت إلى رموز لقبح وبلادة الأزمنة)(مقدم، ٢٠٠٨، ص٢٣).

وتنعي الروائية في موضع آخر القصور التراثية نظرا لما آلت إليه من هجر وتخريب، هذه القصور التي لم تعد لها أية قيمة جمالية إلا في عيون الغرباء والسياح، أما سكانها الأصليون فقد استبدلوها ببنايات حديثة مبنية من الإسمنت بدلا من الطين.

(ثم إن القصور ليست ثمينة إلا لدى السواح النادرين، الباحثين عن الغرائبية ولدى أولئك الذين لا يسكنونها أما أنا، فأتفهم أن سكانها يضحون بالجمال من أجل قليل من الرفاهية وأسقف لا تذوب طينا لأدنى مطر، يقال بأن القصر لا يأوي الآن إلا الماعز والخرفان وبعض الحمير الذين نجوا من غزو المحركات) (مقدم، ٢٠٠٨، ص٨٨).

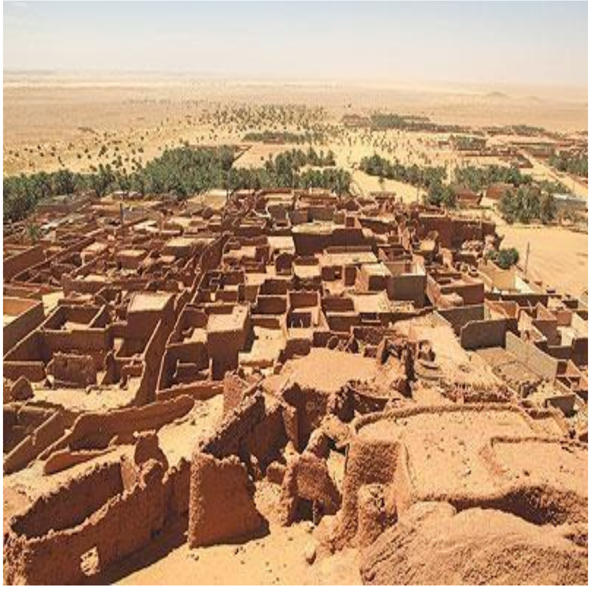

مما يزيد القصر جمالا، محافظته على تماسك أفراد القبيلة، وخلق جو عائلي بينهم، حيث نعثر على علاقات الجوار وصلة الرحم بين الأقارب، والرحمة والرأفة بين الأفراد، على عكس البنايات الحديثة، التي قضت على معظم هذه العلاقات السامية، والتي أدت إلى تشتيت القبيلة، ودخول أفرادها في عزلة وجفاء:

(إن المنازل الحديثة تملك كثيرا من الرفاهية وقليلا من الجود. الحداثة؟ تبهرنا بإنجازاتها ولكنها تغلق أبوابها على جزء صغير من الناس فقط الآن، أنهى البعد ما تبقى من العلاقات، وحطم التضامن) (مقدم، ٢٠٠٨، ص ١٧٧).

وما بين سجال طويل بين ثنائيات الماضي والحديث، الأصيل والوافد، يشيد أغلب الروائيين الجزائريين بالمعمار التراثي الصحراوي، ويستنكرون المسخ والتمزق الذي طاله، على حساب الذاكرة الجماعية والراحة النفسية، والعلاقات الإنسانية الحميمية لأهلها الأصليين.

وفي هذا الإطار نختتم جدلية العمارة التراثية، بين الماضي والحاضر، برأي المفكر اللبناني" علي حرب" في مدار حديثه عن التحولات العميقة التي عرفتها المدن العربية من حيث شكلها العمراني، يقول أن الرهان الأمثل هو (العمل على تشكيل نماذج وطرز في العمارة تؤمن التوازن بين الذاكرة التراثية والتقنيات المستحدثة، بحيث يقوم على تلاؤم وتفاعل في هندسة المدينة بين الحاجات النفعية والرمزية أو بين الأبعاد الخلقية والجمالية) (حرب، ٢٠٠٥، ص١٥٨).

وهذا ما نراه منطقيا، نحافظ على تراثنا المعماري وعلى جمالياته المتماشية وطبيعة مدننا المناخية، وقيمنا الخلقية فاتحين في الوقت ذاته فرص التجديد والتحديث، مستفيدين من تقنيات العصر الراهن وتكنولوجياته.

الخاتمة: بشكل عام تتميز المدن الصحراوية بتخطيط تقليدي يقوم على القصور ذات الأزقة المسقوفة، الضيقة والمتعرجة، والبيوت الطينية والجبسية المتعددة الغرف، والمقببة الأسطح، والحدائق الداخلية، والجوامع المزخرفة.

تكمن جماليات العمارة التراثية في مدى تناسق أجزائها من حيث الشكل والحجم والقياس واللون وانسجام مواد بنائها مع الطبيعة والمناخ، ومدى موافقتها للقيم والمعايير الخلقية والاجتماعية، كتوفرها على عنصر الأمان والخصوصية.

إحساس الروائيين الجزائريين بالانتماء الهوياتي، دفعهم إلى استدعاء الماضي، وتوثيق التراث المعماري كونه جزءا من مقومات الهوية الثقافية.

يمكن اعتبار النص الروائي سجلا للتوثيق، وأداة مهمة للتحفيز على المحافظة على التراث المعماري. والتغير ميزة إنسانية، وضرورة حتمية تلازم كل عصر من عصور التاريخ، وكل تغير في العمارة والنظم القديمة، ينتج عنه تأرجح الذات بين الدفاع عن القديم الذي يموت، والتبشير بالجديد الذي لا يعرف كيف يحيا، والرهان هو تطويع التراث وجعله يتناسب مع التطور الحاصل.

لم تهتم إلا القلة القليلة من الروائيين الجزائريين بالجانب المعماري للمدن والقرى الصحراوية، وكان اهتمامهم بالجانب الاجتماعي للمدينة أكثر من اهتمامهم بالجانب الحضري والمعماري.

قائمة المراجع

- ابن بطوطة. (د.ت). الرحلة. بيروت: دار صادر.
- ابن خلدون. (د.ت). المقدمة. القاهرة: دار الشعب.
- أحمد محمد زغب. (٢٠٠٥). المقبرة البيضاء. الجزائر: دار الهدى.
- إسماعيل يبرير. (٢٠١٣). المعتوه. الجزائر: دار ميم.
- شارل دي فوكو. (د.ت). كتابات ورحلات في الصحراء الكبرى. باريس: منشورات كاثوليكية (نصوص مترجمة.(
- رشيد بوجدرة. (٢٠٠٢). تيميمون. الجزائر: دار القصبة.
- غاستون باشلار. (١٩٨٤). جماليات المكان (ترجمة غالب هلسا). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- حنكة حواء. (٢٠١٦). عايشة. الجزائر: دار ميم.
- علي حرب. (٢٠٠٥). أوهام النخبة أو نقد المثقف. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- مالك حداد. (د.ت). سأهبك غزالة. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- الصديق حاج أحمد. (٢٠١٣). مملكة الزيوان. الجزائر: منشورات الاختلاف.
- حمادي أحمد الحاج. (د.ت). الفقارات ونظم السقي التقليدية في صحراء الجزائر. الجزائر: (منشورات جامعية.(
- زايد بوفلجة. (د.ت). راهبة في الصحراء. الجزائر: دار الهدى.
- محمد ولد الشيخ. (١٩٣٧). مريم بين النخيل. الجزائر: مطبعة الأهالي.
- عبد القادر ضيف الله. (٢٠١٣). تنزروفت. الجزائر: دار الاختلاف.
- جميلة طلباوي. (٢٠١٤). الخابية. الجزائر: دار ميم.
- حسين فيلالي. (٢٠١١). اليربوع. الجزائر: دار ميم.
- محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. (١٩٨٨). القاموس المحيط. بيروت: دار المعرفة.
- ربيعة جلطي. (٢٠١٢). نادي الصنوبر. الجزائر: منشورات الاختلاف.
- محمد مرين. (٢٠١٣). عرائس الرمل. الجزائر: دار ميم.
- مليكة مقدم. (٢٠٠٨). الممنوعة. الجزائر: دار القصبة.
- عبد الواحد لؤلؤة. (١٩٨٣). معجم المصطلحات الأدبية. بيروت: دار العلم للملايين.
- اليونسكو. (د.ت). تقارير التراث العالمي حول العمارة الصحراوية. باريس: اليونسكو.